



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

مظهر محمد صالح*: المدرسة النمساوية ومعادلة الصراع الكمي في الاقتصاد

١- تمهيد: المذهب الفردي

لا يخفى ان مصدر المذهب الفردي individualism وشيوعه هو ذلك البلد الاوروبي الصغير (النمسا). ففي القرن التاسع عشر نشر كارل مانجر Carl Menger مؤسس المدرسة الاقتصادية النمساوية Austrian School of economics كتابه الموسوم «مبادئ علم الاقتصاد» في العام 1871. وغدا المذهب الفردي حينها من الاتجاهات السائدة في المجتمعات الاوروبية التي تتطلع الى تشجيع حرية الفرد والتركيز على الفرد نفسه على حساب الروابط التقليدية للعائلة والتماسك الاجتماعي.

وعلى الرغم مما تقدم ، فقد عد الفيلسوف (كارل ماركس) من القرن التاسع عشر، هو الاول في استعمال عبارة الفردية او المذهب الفردي individualism والتي كررها في كتاباته ، باشمئزاز كبير ولمرات عديدة، قبل ان تأخذ العبارة المذكورة حيزاً واسعاً في الاستعمال الاصطلاحي لدى صناع القرار في نهايات القرن العشرين. بل شكل المذهب الفردي البذرة التأسيسية لمدرستي: (الاقتصاد الريغاني Reaganomics) نسبة الى الرئيس الاميركي رونالد ريغن (والتاتشرية الاقتصادية) نسبة الى مارغريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة، واللذان شيئا النواة في نشر مبادئ الليبرالية الجديدة neoliberalism وحركة المحافظين الجدد والدعوة الى العولمة.

كما يرى اصحاب المذهب الفردي (او المدرسة النمساوية) ان حرية الفرد تشكل البنية الثقافية المولدة لروح المبادرة التنظيمية والابتكار



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

innovation في النشاط الاقتصادي، وهي الضمانة المثلى لتوسع النظام الرأسمالي. يعتقد اصحاب المذهب الفردي ان القيم والحقوق والواجبات كافة هي متأصلة بالأفراد انفسهم، ولا بد من ان تتفوق مصالحهم اخلاقياً على تلك الكيانات المجردة (مثل المجتمع) على حد قولهم.

٢- المدرسة النمساوية وتطوراتها النظرية

اعتمدت المدرسة النمساوية التي انشأت بين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على توجهات اقتصادية فكرية وتحليلية تقوم على التمسك بالمنهج الفردي individualism كما ذكرنا آنفاً، وعده اسلوباً فلسفياً يشرح التطورات و التصرفات الاجتماعية بكونها مجموعة قرارات لأفراد المجتمع ناجمة عن دوافعهم ورغباتهم وفعالهم الفردية.

كما ضمت المدرسة النمساوية بشكلها الكلاسيكي اسماء اقتصاديين بالإضافة الى كارل مانجر : (ويزر Wieser و يوجين فون بوم-بافيرك Bohm- Bawerk وامثالهم) ممن تعلموا بشكل موسع في جامعة فيينا Vienna واشتركوا جميعهم بنمط تحليلي محدد. فالمدرسة النمساوية ومن خلال كتابات (كارل منجر) قد عزلت نفسها ابتداءً وانفصلت عن المدرسة التاريخية الالمانية واعتنقت منهج الاستنباط deduction اضافة الى النظرية في بحوثهم الاقتصادية. و طورت المدرسة النمساوية ايضاً ما يسمى بالنظرية الذاتية للقيمة والتي تقوم على اساس المنفعة الحدية marginal utility لكي تتخذ موقفاً مناقضاً للنظريات الاخرى السائدة في تحديد كلفة الانتاج وبشكل خاص نظرية العمل في تحديد القيمة.

اما المعالجة التقريبية لراس المال (التي يُعتقد ان انتاجية راس المال تنشأ من دوران راس المال نفسه) فقد عُدَّت بمثابة معالجة اصيلة ومميزة لدى الكثير من المدارس الاقتصادية. في حين ظلت اعمال بوم-بافيرك Bohm-Bawerk في راس المال والفائدة مصدر تحفيز وجدل بين الاقتصاديين الى يومنا هذا. حيث يُشار الى الفائدة interest بكونها



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

العلاقة بين التفضيل الزمني والانتاجية المادية. وبالوقت الذي ابتكر فيه بوم -بافيرك Bohm-Bawerk نظريته لتأسيس شرط التوازن equilibrium condition في المدى الطويل، نجد ان فريدريش فون هايك Hayek قد كَيفها لشرح الدورات الاقتصادية في النظام الرأسمالي، والذي وجد ان فترة الانتاج تنخفض عند صعود الدورة الاقتصادية وتزداد بهبوط الدورة، ذلك طالما ان فترة الانتاج تتغير مباشرة مع الاجر الحقيقي real wage وتتغير عكسيا مع معدل الفائدة interest rate.

وهكذا ضمت المدرسة النمساوية الحديثة Modern Austrian School كل من فون ميزز Mises وفون هايك Hayek وهابرلر Haberler و فرتز ماكلب Fritz Machlup صاحب نظرية ما بعد الصناعة الذي سلط الضوء على تطورات قطاع الخدمات، حيث عد المعرفة knowledge ولأول مرة كمورد انتاجي وصاغ مفهوم مجتمع المعرفة knowledge society.

ومنذ اربعينيات القرن العشرين شهدت المدرسة النمساوية انقساماً ضم جناحين مختلفين رئيسيين: الاول، مثله فون ميزز Mises، ويرى هذا الجناح ان المنهجية النيوكلاسيكية في الاقتصاد او الكلاسيكية الجديدة هي (معيبة defective) وتحمل نواقص لا يمكن اصلاحها. اما الجناح الثاني، فيمثله فون هايك Hayek الذي قَبِلَ بجزء كبير من المنهجية النيوكلاسيكية، كما قبل بمساحة اكبر من التدخل الحكومي بالاقتصاد.

٣- المنفعة الحدية: حوارات كارل مانجر Carl Manger

تقترب عبارة (الرابحون يستحوذون على السوق كله) في الادب الاقتصادي للمدرسة النمساوية من العنوان الذي اعتمده استاذ الاقتصاد والادارة الشهير في جامعة كورنيل في الولايات المتحدة روبرت فرانك Robert Frank في كتابه الذي نشره في العام 1995 مع زميل له والموسوم: الرابحون



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

يستحوذون على (المجتمع) كله والذي اكد فيه بأن قلة من الشعب الامريكي ممن يقطن في محيط بشري لا يتعدى 1 بالمئة من سكان الولايات المتحدة يستحوذ لوحده على نسبة تزيد على 40 بالمئة من اجمالي نمو الدخل السنوي في اميركا. واللافت ان نسبة ضئيلة جداً من بين اولئك المحظوظين من اصحاب المهارات والمواهب (سواء في سوق الرياضة او في سوق الموسيقى والغناء او اسواق السينما و النشر) يتمكنون من الاستحواذ على ايرادات ضخمة تدرها تلك الاسواق سنوياً مقارنة بمتوسط ايراد السوق كله. ويعود السبب في ذلك الى ان جمهور المستهلكين والشركات هم من يبحث عن تلك المهارات ليجعلها قوى رابحة تستحوذ على السوق بشكل متسارع. فالاختلافات في المواهب او المهارات او الشهرة، وان كانت قليلة فإنها تؤدي لامحالة الى عوائد دخل سنوية كبيرة والى تراكم في الثروات بصورة هائلة مقارنة بالمنافسين الاخرين و على نحو لا يصدق! وتفسر العولمة اليوم جانباً مهماً من ظاهرة الاستحواذ تلك بسبب ثورة الاتصالات بين مناطق العالم واسواقه الناجمة عن التطور الهائل في انظمة تكنولوجيا المعلومات.

ففي العام 2007 احدث لاعب الكرة البريطاني ديفيد بيكهام، على سبيل المثال، موجة كبيرة عندما تداولت وسائل الاعلام تخليه عن نادي مدريد الملكي لكرة القدم لقاء توقيع عقد مع نادي (لوس انجليس غالكسي) الامريكي بمبلغ 250 مليون دولار لمدة خمسة اعوام. وليخفى على الجميع ملكة الغناء الشعبي الكندية شانيا توين التي حصلت على عشرات الملايين من الدولارات جراء بيعها ملايين الاقراص المدمجة في سوق الغناء عبر العالم.

ولكن يبقى التساؤل، هل ان ضربة الجزاء التي يؤديها ديفيد بيكهام والتي ربما لا تخطيء الهدف كما يقال تستحق مبلغ 50 مليون دولار سنوياً؟ وهل ان ما يدفع لذلك اللاعب هو ذو قيمة اجتماعية حقاً؟ هنا يجيب فرانك في كتابه بالنفي! ولكن يقول ان تحقيق مدخولات خيالية على غرار بيكهام او غيره ستدفع الناس في البحث عن اختيار فرص عمل مخطوءة. فبدلاً



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

من ان يقدم الطلاب على تعلم علم الرياضيات فإنهم يضيعون اوقاتهم بالتدريب على مهارات رياضية هم ليسوا قادرين بدنيا عليها! والنتيجة ان الاسواق الحرة قد تؤدي بسبب دافع الربح الى ضياع المهارات التي يمكن ان تكون نافعة في مجالات أخرى.

ولكن يبقى التساؤل: ما هو السر في دفع كل تلك المبالغ العالية لتلك المهارة من الاداء؟ يأتي الجواب من المدرسة النمساوية في الاقتصاد وبالأخص من العالم (كارل مانجر Carl Manger) في كتابه مبادئ علم الاقتصاد (1871) المشار إليه آنفاً، اذ يحاور الاقتصادي النمساوي كارل مانجر آدم سمث حول موضوع الفرق بين منفعة قدح الماء وقطعة من الماس عند تناول موضوع قيمة الاشياء. وينتهي (كارل مانجر) الى مسألة الحد margin وهو الذي يخفي كل هذه الحقيقة الجدلية! ولكن كيف؟

تصور انك في الصحراء وانك في عطش شديد. هل انت مستعد ان تعطي قطعة الماس التي في جعبتك لقاء ذلك القدح الاول او (الحد الاول)؟ الجواب نعم، انها منفعة القدح الاول من الماء!

ختاماً، ستبقى ركلة ديفيد بيكهام في شباك كرة القدم مثلها مثل منفعة القدح الاول من الماء في الصحراء وليس القدح الثالث او الرابع. فقيمة الاشياء هي مسألة ذاتية تحددها الندرة scarcity وهو ما يطلق عليه في علم الاقتصاد بالثورة الحدية marginal revolution! ومع ذلك يبقى العمل المنتج هو مصدر القيمة واساسها لامحالة.

٤- المدرسة النمساوية والقياس الاقتصادي الكمي

استمرت المدرسة الكلاسيكية الاقتصادية كأيّة في تفكيرها Macroeconomics مبتعدة عن الجزئية من حيث النظر الى الامة جميعها. فعندما يتخذ الناس قراراً معيناً بصورة جماعية تأتي تصرفاتهم في نهاية المطاف منسجمة فيما بينها، وان الاداء الاقتصادي للامة كلها مثل



أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

تقدير الدخل الوطني والتضخم والاستخدام سيولد ما يعرف بالاقتصاد الكلي. وعلى خلاف ذلك نجد ان المدرسة النمساوية تنتمي الى ما يسمى بعلم الاقتصاد الجزئي Microeconomics في تقييم قرارات الافراد الاقتصادية. فعلى سبيل المثال، تبدأ المدرسة النمساوية من عبارة لماذا يتخذ الفرد (individual) قراره في الشراء؟ في حين تبدأ المدرسة التقليدية او الكلاسيكية في الاقتصاد من عبارة لماذا يتخذ الناس (people) قراراً بالشراء؟ وبين هذا وذاك فقد ظل مؤسس المذهب الفردي في الاقتصاد، العالم النمساوي كارل منجر، مدافعاً عن الاقتصاد الجزئي الذي هو اساس فرديته، وان هذا العلم هو ليس من العلوم الصرفة pure science مهما بلغت درجة التحليل التجريبي فيه، وانه مجرد فرع من العلوم الاجتماعية social science التي تهدف الى تصنيف الناس ووضع افعالهم وانماط سلوكهم باطار منطقي، وان غايته من ذلك هو تأكيد الطبيعة المضطربة لعلم الاقتصاد، مبتعداً في الوقت نفسه عن استعمال التحليل الرياضي والاحصائي.

وبهذا فقد انتقد علماء الاقتصاد من المدارس الاخرى المختلفة المدرسة النمساوية بشدة منذ منتصف القرن العشرين بسبب رفضها الاقتصاد القياسي econometrics والنمذجة الرياضية mathematical modeling ما جعلها مدرسة (بدعية او هرطقة heresy). وبالرغم من ذلك فقد تغيرت النظرة الى المدرسة النمساوية بشكل كلي مع ظهور بوادر الليبرالية الجديدة وحصول عالم الاقتصاد فون هايك على جائزة نوبل في علم الاقتصاد في العام 1974.

٥- الاستنتاجات

على خلاف المذهب الفردي والمدرسة النمساوية، اظهرت نتائج الاختبارات الاحصائية والتجارب القياسية في مجال الاقتصاد الجزئي، التي قام بها كولن كاميرون من معهد «كاليفورنيا للتكنولوجيا» والذي نشرت ابحاثه بين العام 2011 والعام 2014 في المجلة الاقتصادية الاميركية AER، ان نسبة



شبكة الاقتصاديين العراقيين

IRAQI ECONOMISTS NETWORK
www.iraqieconomists.net

أبحاث نظرية في الفكر والتاريخ الاقتصادي

61 بالمئة من تجاربه جاءت مطابقة للوقائع الاقتصادية وهي نسبة مؤثرة ومماثلة لنتائج تجارب العلوم الطبية والوراثية وغيرها من العلوم الصرفة حيث ان علم الاقتصاد هو من علوم المنطق يتوافق والمنطق الرياضي الكمي والتحليل الاحصائي مثلما يتوافق بالوقت نفسه مع التحليل السلوكي. ■

18 حزيران 2022

(* باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي، المستشار المالي لرئيس الوزراء العراقي.

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الاشارة إلى المصدر . 19 حزيران 2022

<http://iraqieconomists.net/ar/>